المعطيات الحضارية

هي عند الحديث عن الجوانب السياسية نتكلم عن حقيقة الأوضاع في تلك الفترة، من دون تعصب او تحيز كما قلنا ذلك في المقدمة، ولكن لم تدخل الفترة البويهية والسلجوقية، وفترة انتعاش الخلافة العباسية في عصرها الاخير من إصلاحات وإجراءات تبين لنا حرص الجميع بما فيهم لبويهيين والسلاجقة على العمل على استقرار الأوضاع الإدارية في مؤسسات الدولة العباسية، فضلا عن الجوانب الزراعية، التي تشكل في غلب الاحيان المورد الرئيس للدولة العباسية، بغض النظر عن ما لجهة المسؤولة عن الادارة في البلاد سواء اكانت بويهية او سلجوقية و وجود خليفة عباسي قوي كالناصر لدين الله أو وجود محتل أجنبي يمت للاسلام او المسلمين بصلة، كما هو الحال مغولي. كما جاء هذا الفصل ليفند القول القائل من ان الاحتلال الاجنبي شتى اشكاله بويهيا كان ام سلجوقيا، أو مغوليا في آخر الأمر، قد أثر على المستوى العلمي للناس في العراق بشكل خاص، ولبقية البلاد التي لالها هذه الغزوات بشكل عام، لهذا جاء هذا الفصل مجيبا عن تساؤلين لا الث لهما، الأول هو تناول أهم الإجراءات لتنمية الزراعة وتطويرها، هي مشاريع الري في العصر العباسي، التي كان لها الدور الأساس في مية الزراعة، المورد الأول للبلاد في العراق وفي العالم في ذلك الوقت، مع التأكيد أننا لن نتناولها بشكل مفصل . الأمر الثاني الذي يجيب عليه هذا الفصل هو الحركة العلمية التي شهدتها البلاد في هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، فنجد آلاف الكتب التي الفت عن هذه المدة وعن الفترات اللاحقة، ومن خلال نظرة سريعة للكتب التي ألفت في هذه المدة، نجد أن عددا هائلا من الكتب والمؤلفات قد ت تأليفها، كما ان اسواق الوراقين كانت تعج بالنشاط العلمي والأدبي، ول تنقطع المناظرات الشعرية والمطارحات بين الشعراء من مختلف ارجا العالم الإسلامي. كما ان اعداد المدارس ازدادت بازدياد الحاجة العملي والعلمية لوجودها، فالدواوين تطورت والإدارة قبل غيرها أصبحت بحاج الى كادر اداري واني من اجل تمشية أمورها الإدارية والمالية، فلا يمكن ان تجري عملية جباية الضرائب من دون شخص له الالمام بسعر الماد المراد اخذ الضريبة عنها وسعر السوق، وسعر صرف العملة وحساب الناتج وغيرها من أمور الجباية. واذا انتقلنا الى هندسة مشاريع الري نجد الحاجة أكبر من ذي قبل، فالمهندس يجب أن تكون له الخبرة بنو الأرض التي يجري عليها المشروع، ومدى صلاحيتها لإنجاز هـ المشروع دون ذلك، والعامل الفني الذي يشرف على عملية الحفر والتنف يعرف بالملاحظة والخبرة التي اكتسبها من ابيه وجده، كيف يوجه الحا والى أي مستوي ليعطي الماء انسيابية في السقي والتصريف، وهكذا فـ بقية مجالات الحياة الأخرى. ونطلب العذر لنا من زملائنا وأساتذتنا الكرام، أن اخطأنا في هذا

التأكيد وهو وجهة نظر لاغير، فالذي يعمل يخطيء أو يصيب، فنطلب السماح من الله اولا ومن اعزائنا الكرام طلاب واساتذة، فضلاً. عن الإشارة إلى بعض المنشآت العمرانية ذات الطا العام اما القصور التي انشأت في هذه المدة، فيعجز العاد عن حصره لكثرتها، فكل أمير او وزير او خليفة قد اتخذ عدد من القصور، ودورالاستراحة في مختلف مدن العالم الإسلامي آنذاك. ففي الفترة البويهية، تولى البويهيون حكم العراق وخراسان ومنطقه الجزيرة الفراتية، وأصبح عضد الدولة هو الشخص الأول المسؤول عن دارة هذه المناطق، وتمشية أمورها من اجل ان تستمر كذلك الحياة السياسية في هذه المناطق تحت الحكم البويهي. وفيما يروى عن عضد لدولة انه كان عاقلا فاضلا حسن السياسة كثير الاصابة شديد الهيبة بعيد نهمة ثاقب الرأي محبا للفضائل واهلها باذلا في مواضع البذل مانعا في اماكن الحزم ناظرا في عواقب الأمور .سعى عضد الدولة البويهي في خلافة الطائع الله الى اجراء صلاحات اقتصادية فتم في عهده اصلاح البثوق (الكسور في السداد مطلة على مدينة بغداد) التي حدثت في دجلة، وفي عهده عمرت نداد، لأنها كانت قد خربت بانفجار البثوق، فأمره الطائع الله فتولى بنفسه سد بثق النهروان فسده سنة سبع وستين وثلاثمائة، وأثر عضد دولة في زمن الطائع لله آثاراً جميلة وعمارات كثيرة، وغرس الأشجار، أخر الخراج، ورفعت الجباية عن قوافل الحاج، وكثر ادرار الأقوات الرسوم والصلات للفقهاء والقراء وأهل الأدب، ورغب الأحداث في تأدب لكثرة العطاء، وكانت الارتفاعات جمة، والأموال وافرة. وبنى وراً للمدينة المنورة وعمل قنطرتي الصراة، لعبور الناس والصراة هو ند انهار بغداد الصغيرة، التي تستخدم للزراعة وللشرب، وللنقل في خل بغداد . وامر معز الدولة البويهي ببناء الجسور و القناطر لمسنيات (السداد على ضفاف النهر)، فقد بنى عضد الدولة جسرا في مدينة بغداد وقنطرتين على نهر الصراة، وقد انتهى بناء الجسر سنة 38هـ / 993م في مشرعة القطانين وكان عضد الدولة محبا للعلوم وأهلها مكرما لهم محسنا اليهم، كان يجلس معهم يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، القراءات سنفوا له الكتب ومنها الإيضاح في النحو، والحجة في القراءات والمكي في الطب والتاجي في التاريخ وغير ذلك، وعمل المصانع في سائر البلاد كالبيمارستان والقناطر وغير ذلك من المصالح العامة . وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة 369هـ / 979م ان عضد الدولة ((شرع في عمارة بغداد، وكانت قد خربت بتوالي الفتن فيها، وعمر مساجده وأسواقها، وادر الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد والزم أصحاب الاملاك بعمارتها وجدد ما دثر من الانهار ، وأعاد حفرها وتسويتها، وأطلق مكوس الحجاج، واصلح الطريق من العراق الى مكة شرفها الله تعالى، واطلق الصلات لأهل البيوتات والشرف والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة وفعل مثل ذلك بمشهدي علي

والحسين عليهما السلام، وسكن الناس مـــر الفتن وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرير والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحساب والمهندسين، واذن لوزير نصر بن هارون، وكان نصرانيا في عمارة البيع والديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم)) . وهذه التفاتة كريمة من لدن عز الدولة البويهي تجد أهل الذمة في العراق. كما بنى عضد الدولة البويهي سورا على المدينه المنورة مدينة النبي محمد (ص).وأمر عضد الدولة طاهرك بن موسى ان يبني في موضع الحبس الجديد ببغداد مارستانا وخصص له نفقات كثيرة بلغت خمسة آلاف دينار، وبنى طاهرك المسناة واتمها، لكنه لم يتم بناء المارستان، اذ ان المنية عاجلته. وقد تجلى الاهتمام بالخدمات العامة في عهد عضد الدولة البويهي، ومنها الخدمات الصحية، ففي سنة 372هـ / 982م، امر ببناء المارستان الرئيس في بغداد ، وخصص له اوقافا كثيرة، وزوده بما يحتاج اليه من الآلات والأدوية، ورتب فيه الأطباء والوكلاء والخزان ونقل اليه كل ما يحتاج اليه المارستان . وكان في هذا المارستان كحالون (اطباء عيون) وجائحيون أي المختصون بالجراحة ومجبرون وقد ذكر أن الراتب الشهري لأحد اطباءه وهو جبرائيل بن عبد الله الذي كانت نوبته في العمل يومين وليلة في الاسبوع مقداره 300 درهم وكانت المحاضرات الطبية تقرأ فيه، لكنه تعرض في بعض الفترات الى الإهمال، أثناء الاضطرابات السياسية مثلما حدث في سنة 449 هـ / 1057م في ايام طغرل بيك حتى خلا من الدواء والشراب، وسبب ذلك ان احد اليهود استولى على أوقافه الا ان الاوامر صدرت بتجهيز المارستان بالفرش والادوية والاطباء والطباخين . وقد زاره ابن جبير اثناء زيارته لمدينة بغداد سنة 580هـ / 1184م فقال عنه: يقع في الجانب الغربي من المدينة على ضفة نهر دجلة، يتفقده الأطباء كل اثنين وخميس للنظر في احوال المرضى وتخصيص ما يحتاجون اليه من الأدوية، وفيه طباخون يطبخون الاغنية والأدوية، وهو قصر كبير يدخل إليه الماء من دجلة، وفيه جميع مرافق البيوت الملكية. ثم اصاب المارستان العضدي الخراب والدمار بسبب الإهمال وعدم الأنفاق والسيطرة على أوقافه، فتسلمه الشيخ ابو منصور ابن عبد الملك بن يوسف (ت 460 هـ / 1067م) وكان قد دثر واستولى عليه الخراب فجد في عمارته، وجعل فيه ثمانية وعشرين طبيبا، وثلاثة من الخزان واشترى له الاملاك النفيسة، بعد أن كان ليس به طبيب ولا دواء ، ولقد بقي إلى حدود سنة 626هـ / 1228م ، وكان له خازن وطبيب وقوام وحجرة للمجانين وكانت تجري فيه عمليات ختان الاطفال مثل اولاد الخليفة المستعصم بالله، وكان يمارس نشاطه الطبي حتى عام 672هـ / 1382م أي بعد الغزو المغولي للعراق، حينما عزل مسؤوله اليهودي، ولكن يبدو ان هذا المارستان قد تعرض للخراب، فعندما مر ابن بطوطة بمدينة بغداد قال عنه: قصر كبير خربت بقيت منه الآثار.ولم يكن المارستان العضدي وحده في بغداد بل

كانت هناك مارستانات اخرى نذكر منها المارستان الذي أسسه المملوك خمارتكين في الجانب الشرقي من بغداد في سنة 508هـ / 1114م، ويقع هذا المارستان في باب الازج، بأمر من سيده تاج الدولة تنتش بن الب ارسلان، وقد رأه ياقوت الحموي في سنة 625هـ / 1227م، وحدد موقعه وانه موجود وأتم الأمير شرف الدولة سنة 413هـ / 1022م بناء مارستان بمدينة واسط، وحملت إليه الأدوية والاشربة والأطباء والخزان والوكلاء ووقفت عليه أملاك كثيرة لسد نفقاته . وقد أشار ابن جبير إلى موقع المارستان في بغداد الغربية فقال: ((وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم اخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة، يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن الملوكيةوالماء يدخل إليه من دجلة)). وأود أن أشير هنا الى ان المارستانات كانت منتشرة في كل مدن العالم الإسلامي، وكانت توقف لها الأوقاف التي تسد حاجاتها ويزيد، ففي مدينة الموصل كان يوجد مارستانان احدهما في ربض المدينة وآخر في داخل البلد . أما في مدينة البصرة فقد أمر الخليفة في سنة 629هـ / 1231م بإنشاء مارستان في المدينة وخصص له الأوقاف من مال الخليفة الخاص . وتم تكليف الأمير الأمير شرف الدولة سنة 411هـ / 1022م ببناء مارستان بمدينة واسط ، وحملت اليه الادوية والاشربة والأطباء والخزان والوكلاء ووقفت عليه املاك كثيرة لسد نفقاته وعندما اكتمل بناؤه افتتحه في سنة 413هـ/1022م، مؤيد الملك ابو علي الحسن الرخجي وزير شرف الدولة، وقد استمر هذا المارستان الى سنة 595هـ / 1198م و611هـ / 1214م ولكن لا تعلم هل استمر هذا المارستان في العهد الايلخاني . وانشأ الخليفة مارستان بالبصرة في سنة تسع وعشرين وستمائة ، وفي سنة 688هـ/1289م تم انشاء مارستان على شاطىء الفرات في مدينة الحلة، وقد انشأه مجد الدين اسماعيل بن الياس الكتبي المتوفي سنة 688هـ / 1289م . وقد وجه أبو عبد الله محمد بن يحى بن فضلان المتوفي في سنة 631هـ / 1232م رسالة إلى الخليفة الناصر لدين الله يشير فيها إلى تدني مستوى الأطباء من أهل الذمة جاء فيها : ((ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين وخمس وائم من تذكرة الكحالين، وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة وجلس في مقاعد الأسواق والشوارع على دكة حتى يعرف وبين يديه المكحلة والملحدان يؤذي هذا في بدنه ويجرب على ذا في عينيه فيفتك من أول النهار الى آخره ويمضي آخر الليل الى منزله ومكحلته مملوءة ،قراضه، فإذ عرف بتعوده على الدكة، وصار له الزبون قام يدور ويدخل الدور)) . وفي عهد المغول الايلخانيين، جرى الاهتمام بالطب وذلك لحاجة هؤلاء له فظهر عدد من الأطباء نذكر منهم سعد الدولة اليهودي صاحب ديوان ممالك العراق وشمس

الدين الصباغ وأبو منصور ومجد الدين سنجر البغدادي الذي تولى المستنصرية وفحص الأطباء، وقد وصف ابن الفوطي احد الاطباء في عهده فقال: ((كان طبيبا حاذقا له معرفة بالمزاج والعلاج)) .كما وردت إشارة إلى وفاة قاضي المارستان أبو بكر بن محمد بن عبد الباقي الأنصاري، قاضي المارستان في سنة 535هـ/1140م، وكان عالما بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها . ويشير هذا النص إلى أن هنالك محلة قرب المارستان وقد قعد هذا الرجل للقضاء فيها، أو أنه كان هنالك قاض خاص للمارستان، للاشراف على اوقافه ومتابعة الانفاق على أحوال المرضى فيه، والحكم بما يحدث لهم، مثلما كان هنالك قاض للعسكر منذ زمن بعيد في المدة العباسية. وفي الناحية العمرانية فقد تم اقامة أو تطوير بعض الابنية لأهداف شتى منها: قيام الأمير عماد الدولة ببناء مدينة العمادية وشيد حولها سورا وحصنا كبيرا ، ولكن لانعرف هل هي مدينة العمادية في العراق ام غيرها، لأنه قد أشار إلى بنائها في منطقة الجزيرة وعمادية العراق تقع شرق دجلة قرب الحدود مع تركيا، فإذا كانت هي عمادية العراق، فربما بنيت لصد هجمات البيزنطيين التي كانت هذه المنطقةتتعرض دائما لهجماتهم. اما في عهد الخليفة المقتدي بامر الله 467-487هـ / 1074 -1094م، فقد تم بناء جامع المدينة المنورة والمساجد التي تجاوره، وبنى كثير من المصانع (المنشآت العامة) والقناطر، وأعاد كري الأنهار التي كانت معطلة مثل نهر شيلي والخالص ونهر بين والاسحاقي، وبنى المصانع في طريق الحجاز - أي بناء محطات الاستراحة وتنظيف الآبار في طريق الحج التي كانت تسلكه قوافل الحج .وقد اهتم الخلفاء العباسيون في هذه الفترة بحفر الأنهار وكريها مثلما فعل الخليفة العباسي المستنجد بالله في سنة 563هـ / 1167م عندما امر بحفر نهر دجيل . كما قام الخليفة العباسي المستنصر بالله بتحسين شؤون الزراعة والري في منطقة شمال بغداد، از امر بحفر نهر آخر يأخذ مائه من نهر الدجيل ، يأخذ مائه من نهر الدجيل، وسماه بالدجيل المستنصري وبنى عليه قنطرة عرفت باسم جسر حربي عند مدينة حربي في الجانب الغربي من 629هـ/1231م (4). وقد ذكر أبو دجلة بين سامراء وبغداد، وذلك في سنة الفداء أنه يوجد في جنوب العراق وفي منطقة البصرة وحدها، مايزيد على مئة ألف نهر ، ويقصد بها القنوات الأروائية التي كانت تتكفل بها الدولة والناس من أجل إدامة الزراعة في جنوب العراق، لما لهذه المنطقة من أهمية في واردات العراق، فضلا عن الاكتفاء الذاتي الذي تحققه هذه المنطقة للعراق على وجه الخصوص. ونتيجة لما كان يعانيه سكان العراق على وجه العموم، وبغداد على وجه الخصوص فقد تم الاهتمام ببناء السدود على ضفاف الأنهار وتحصينها بين فترة وأخرى، وقد اشار احمد سوسة في معرض حديثه عن السدود شرقي بغداد، فوجد أن هنالك سدين قائمين على نهر ديالي في مضيق جبل حمرين (قرب مدينة الصدور حاليا في محافظة

ديالى)، مما يؤكد أن هذين السدين كانا قيد الاستخدام او ان احدهما قد بني بعد تهدم السد الآخر، أو أن الاثنان معا كان كل منهما يحمي الآخر (كسد بادوش الحالي الذي يحمي مدينة الموصل من خطر تهدم سد الموصل في الوقت الحاضر) . كما ان الخليفة المستظهر بالله انشأ سورا وخندقين يتصلان بنهر دجلة عند مدينة بغداد من شمالها حتى جنوبها، وقد اكتمل هذا السد والسور في عهد الخليفة المسترشد بالله، فنظمه واحكم بناؤه في سنة 517هـ / 1123م وجعل عرض السور 22 ذراعا كما أمر الخليفة المسترشد بالله سنة 517هـ / 1123م ببناء سور لمدينة بغداد، بحيث يكمل عمل الخليفة الذي قبله، وان يجبى ما يخرج عليه من البلد، فشق ذلك على الناس، وجمع من ذلك مال كثير ، فلما علم الخليفة كرامة الناس لذلك، أمر بإعادة ما اخذ منهم، فسروا بذلك وكثر الدعاء له. وقد تناوب اهل بغداد على المشاركة في بناء السور، يعمل كل اهل محلة منفردين بالطبول والزمور، وزينوا البلد وعملوا فيه القباب (السرادقات). وقد ظل هذا السور حتى الغزو المغولي للعراق، حيث هدمه المغول، والهدف من بناء هذا السور هو لحماية مدينة بغداد من الغرق ومن أي هجوم محتمل فهو سور دفاعي وأمني، فضلا عن كونه يمثل قوة الدولة التي سعت لإقامته فأصبح مظهرا من مظاهر مدينة بغداد.

كما شيدت الخلافة العباسية في عهد الخليفة المستظهر بالله(512-487هـ/ 1094-1118م) سداً يقع الى جنوب من مدينة سامراء عرف بسد نمرود، يأخذ مياهه من نهر دجلة جنوب سامراء ثم يسير باتجاه الجنوب الشرقي يصب في نهر دجلة جنوب مدينة بغداد ، هذه خطة ذكية من الخلفاء العباسيين لحماية مدينة بغداد والتي كانت غالبا ما تتعرض الى مثل هذه الفيضانات ، وفي خلافة المستنصر بالله تم اصلاح سد ديالى والعظيم ، وفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م امر الخليفة المستنصر بالله تم ببناء سد على فم نهر عيسى مما يلي دجلة، ليزاد فيه الماء من دجلة. وفي سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م أمر الخليفة المستعصم بالله ببناء سد على شاطيء نهر دجلة عند بستان الصراة، ومما هو جدير بالذكر، ان ديوان الخراج كان يتولى الانفاق على هذا المشاريع الاروائية وصيانة السدود وادامتها. أما السكور وهو كل شق صدر، هو سد الشق ومنفجر الماء، فقد عنيت الخلافة العباسية فيها بشكل كبير، لما لها من اهمية في الحفاظ على مجرى النهر من التحول، وعلى الإنتاج الزراعي من الدمار، وكانت تستعين بهذا الصدد بعدد كبير من المهندسين والعمال من ذوي الخبرة في مجال الري، اذ لايجوز ان يستخدم من ليست له خبرة في هذا المجال ابدا، حتى وان كانت يدا عاملة. فمثلا شكل اصلاح القورج الذي كان غالبا ما يهدد مدينة بغداد، حيث جرت محاولات عديدة من اجل اصلاحه خلال السنوات 654,646,622,هـ / 1225, 1256,1248م على التوالي ويبد انه في بداية المدة

السلجوقية، قد حدث اهمال في العناية بالسدود و المسنيات المحيطة بنهر دجلة في مدينة بغداد، فقد زادت دجلة زيادة عظيمة وانكسر القورج، وجاء في الليل سيل عظيم، وطفح الماء مع البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء الى المنازل من فوق، ونبع من البلاليع والابار بالجانب الشرقي، وهلك خلق كثير تحت الهدم، شدت الزواريق تحت التاج خوف الغرق، وقام الخليفة القائم بأمر الله يتضرع ويصلي، وعليه البردة وبيده القضيب، وغرقت محال عديدة، ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدي. وتكرر انكسار السداد في سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م،اذ انكسرت سدود الفلوجة، وانقطع الماء من نهر النيل، فجلا اهل البلاد،ووقع الوباء فيهم، وظل هذا الكسر حتى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م، حيث اصلحه عميد الدولة بن جهير. في سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م، هدد الفيضان مدينة بغداد، وقد اتبع الخليفة المستظهر بالله الاهتمامبالأمر، وجمع المجمين لمعرفة الكواكب، فوجدوها كلها قد اجتمعت معدا زحل فلا خوف على اهل بغداد من هذا الفيضان، اذ لو اجتمع زحل معبقيت الكواكب لكان فيضاناً كبيراً فأمر الخليفة بأحكام المسنيات والمواضع التي يخشى منها الغرق ولانفجار. كما شرع مجاهد الدين بهروز سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م في عمل النهروانات سكرا عظيما يرد الماء الى مجراه الاول وحفر مجرا النهر العظيم وخرق اليه مجراهتأخذ من ديالى ثم استحال يعد ذلك وجرا الماء ناحية السكر وبقى السكر لاينتفع به احد ولم يتعرض احد لرده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا (اي ايام ابن الاثير) ويشر هذا الاجراء الى وضع السدود الغاطسة في مجرا الانهار شرقي بغداد للانتفاع بها في الزراعة نضرا لأهمية المنطقة الواقع على طفاف نهري ديالى والعظيم.

وفي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م تعرضت مدينة بغداد الى فيضان تأذت منه كثيراً بحيث كسا هذا الفضان السدود وغرقت محال من بغداد وانكسر السور ايضا الذي يحيط في بغداد ، وفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م زادت مناسيب المياه في نهر دجلة وهدد بغرق مدينة بغداد ، اذ دخل الماء من خندق المدينة من باب كلواذى، فخاف الخليفة من الغرق مدينة بغداد وامر بتحصين سد الخندق، وتولى الاشراف على اكمال هذا العمل فخر الدين نائب الوزارة، وعزالدين الشرابي، ووقفا خارج المدينة، فلم يبرحا حتى سد الخندق. وجت حالة ربما تكون فريدة في هذا العهد المتأخر الا وهي محالة كري نهر دجلة، وهي ان تدل على شيء، فإنما تدل على خبرة جيدة مع ضعف امكانات ذلك الوقت،فقد نقصت دجلة في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، نقصا كبيرا ادى الى ضحلة الماء فيها، فأمر الخليفة الناصر لدين الله بكري نهر دجلة، فهيأ الناس لذلك، لكن جهودهم لم تفلح بسبب رجوع الطين الرمل الـــى الموضـع الذي يقومون بكـريه، فتوقف العمل لذلك .

كما تعرضت مدينة بغداد لحادثة فيضان اخرى حدثت سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م بسبب زيادة الماء في نهر دجلة، وكان هذا الفيضان خطراً، وخاف منه الناس، فخرج الخيفة والوزير وقادة الجيش، وجمع الناسوالفعلة و المتطوعة لمعالجة الخلل، سد القورج، لكن عملهم لم يكن بالمستوى المطلوب، حتى قال لهم الخليفة الناصر لدين الله: لو كان يفتدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت، ولـو دفع بحرب لفعلت، لـكن أمر الله لايرد.وقد دمـر هذا الفيضان معظم مناطق الجانب الغربي من بغداد وبعض مناطق الجانب الشرقي من بغداد، وانقطعـت الصلاة بجامع السلطان. تكرر الفيضان في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وعمل سكان بغداد على سد الكسر الذي حدث بالقروج. اما عن بناء المدارس فلم ينحصر العملفي البويهيين انفسهم بل تعداهم الي الوزراء فقد امر في سنه ٣٨٣هـ /٩٩٣م الامير بهاء الدولة الوزير ابا نصر سابور، ان يبني داراً للعلم، وزودها بكتب كثيرة بلغت اكثر من عشرة الاف كتاب، ووقف عليها غلة كبيرة، وظلت هذه الدار قائمة حتى احرقت عند دخول طغرل بيك بغداد في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م. وكانت هذه الدار في مدينة بغداد، ووقف فيها كتب كثيرة على المسلمين المنتفعين بها.

كذلك امر ابو كاليجار وزيره منصور بن شاه مردان بأنشاء دار للكتب في البصرة، وجلب اليها نفس الكتب. وفي هذه السنة 457هـ/١٠٦٤م ابتدئ بعمارة المدرسة النظامية ببغداد ، وقـد اكتمل بناؤها فـي ذي القعدة من سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، وعين لهـا المدرسين ، وقد وصف باني المدرسة النظامية نظام الملك بانه قد أمر ببناء المدارس في سائر الامصار، حيث لم تبق مدينة مهمة خاضعة لسيادة السلاجقة الا وبنى فيها مدرسة نظامية، اجرى لهـا الجرايات والأوقاف التي تسد حاجتها وتزيد.

وفي المدرسة المستنصرية اربعة اواوين،لكل مذهب ايوان فيه المسجد، وموضع التدريس، وجلوس المدرس في قبة خشب على كرسي عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة.من اشهر مدرسي النظامية الامام ابو حامد الغزالي الذي درس فيها فترة من الزمن، ثم غادرها إلى بلاد الشام سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، وزار القدس، واستناب اخاه في النظامية، ولبس الخشن وتزهد واكل الدون من الطعام، وقد صنف الغزالي في هذه السفرة ، كتاب احياء علوم الدين، وسمعه خلق كثير بمدينة دمشق، وعاد الى العراق، ثم غادرها الى خرسان.ومن مدرسي النظامية ايضا الشيخ ابو عبد الله الطبري، وقد عينه فخر الملك بن نظام الملك، وزير بركياروق سنة 489هـ /1096م ، كما درس فيها سنة 545هـ / 1150م بغير أمر الخليفة الشيخ

يوسف الدمشقي، فمنعوطلب منه الوزير ان يدرس فيها ثانية فرفض إلا ان يأمر الخليفة بذلك، ثم سمح له الخليفة بالتدريس بالنظامية .

وفي سنة توفي يعقوب الكاتب ببغداد، وكان يسكن المدرسة النظامية ولم يترك وارثا، فحضر متولي المتروكات وختم على الغرفة التي تركها المتوفى. فهاج الطلبة وكسروا القفل والختم عن بابها، فقبض حاجب الباب على اثنين من الفقهاء وحبسهما، فاغلق الفقهاء المدرسة، والقوا كراسي الوعاظ في الطريق، ثم حل الأشكال بعد ذلك الى ما جرى العرف عليه ومن مدرسي النظامية أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي المدرس بالنظامية، وكان من اصحاب ابي الحسن الخل، وكان صالح خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة، وجاه عريض، وكان حسر الخط يضرب به المثل.ومن مدرسيها ايضا صدر الدين محمود بن محمد بن ثابت الخجندي وهو رئيس الشافعية بأصفهان قدم بغداد حاجا واستوطنها، وولي النتظر بالمدرسة النظامية ببغداد (ت592هـ/ 1195م). وفي رمضان من سن 592هـ/ 1195م درس في النظامية مجير الدين ابو القاسم محمود بن المبارك البغدادي، الفقيه الشافعي.وفي سنة 589هـ / 1139م امر الخليفة الناصر لدين الله، بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل اليها من الكتب النفيسة الوفا لا يوجد مثلها .ولم يكتف نظام الملك ببناء مدرسة نظامية في بغداد فقط ، وإنما بنى عدة مدارس أخرى في مختلف ارجاء العالم الإسلامي ومنها المدرسة النظامية في خوارزم وبنى إلى جوارها جامعا وجعل فيها خزانة كتب، وله مآثر حسنة بخراسان باقية.وفي سنة 535هـ / 1140م بنيت المدرسة الكمالية ببغداد، حيث بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن، ولما اكتمل بناؤها قعد للتدريس فيها الشيخ ابو الحسن ابن الخل. وتم بناء المدرسة التاجية المشهورة والتي بناها تاج الملك مستوفي السلطان السلجوقي بباب ابرز في بغداد، ومن أساتذتها الامام ابو بكر الشاشي.وفي سنة 621هـ / 1224م بنيت دار الحديث الكاملية بالقاهرة بين القصرين، وعين لها رئيس هو ابو الخطاب بن دحية.وقد شاهد الرحالة ابن بطوطة مدرسة النجف الاشرف، واشار إلى كبرها وعظم أوقافها وان لكل وارد اليها ضيافة ثلاثة ايام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم.كما بنى الخليفة المستنصر بالله ابو جعفر منصور بن الظاهر المدرسة المستنصرية وذلك في سنة 625هـ / 1227م واكتمل لابناؤها.في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، وبلغت كلفة انشائها قرابة ستمائة الف دينار واثارها باقية الـى اليوم وتقع قرب نهر دجلة وجسر الشهداء الحالي في بغداد، وقد جددت وزارة الاوقاف كثيراً من معالمها، وقال ابن واصل ((بنى المستنصر على دجلة من الجانب الشرقي الرصافة)) مدرسة ما على وجه الارض أحسن منها، ولا أكثر منها وقوفاً، وهي بأربعة مدرسين على المذاهب الاربعة، وعمل فيها مارستانا، ورتب فيها مطبخا للفقراء، ومزملة للماء البارد، ورتب لبيوت الفقراء

الحصر، والبسط والزيت والورق والحبر، غير ذلك، وللفقيه بعد ذلك في الشهر دينارا، وراتب لهم حماما، وهو امر لم يسبق الى مثله.وقد اراد الخليفة المستنصر بالله ان تكون مدرسته هذه نموذجيه فريدا في التدريس ونموذجا طبيا يقتدى به، اختار لها افضل المدرسين وخصوصا خصصه لهم رواتب وما يحتاجون اليه كما مر بنا قبل قليل. كما حاول ادخال العلوم العقلية ونقلت الى المدارس على عكس المدارس النظامية التي درست العلوم النقلية فقط فدخل الى جانب العلوم الدينية كالفقه والتفسير والعلوم العربية والاصول والفرائض، الحساب والجبر والهندسة والطب وعلم الحيوان، فهي خطوة بحق التأسيس جامعة تعادلجامعاتنا في الوقت الحاضر. احتفل بافتتاح المدارس احتفالا مهيباً، وكان يوما مشهودا حضره ارباب السيف والقلم والعلماء و الادباءوالشعراءوطارت شهرتها الافاق حتى اصبحت قبلة الطلاب العلم. ومن اجمل ما يتذكره الفرد من هذه المدرسة ساعتها الجميلة، وقد وصفها احسن وصف ابن القوطي في كتابه الحوادث الجامعة فقال((في سنه 633 هـ/ 1235 متكامل بناء الايوان الذي أنشأ مقابل المدرسة المستنصرية، وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه، يعلمهم الطب ويقصد المرضى فيداويهم وبنى في حائط المدرسة هذه الصفةدائرة وصور فيها صوره الفلك وجعل فيها طافات لطاف لها ابواب لطيفه وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب وآرائهما بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر فعند ماضي كل ساعه ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقه انفتح باب من ابواب تلك الطاقات والباب من ذهب فيصير حينئذمفضضا واذ وقعت البندقتان في الطاستين تذهب الى وضعهما ثم تطلع اقمار من ذهب في سماء لاوزدية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دوراتها وتغيب مع غيبوبتها فاذا جاء الليل هناك اقمار طالعه من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعه تكاملت ذلك الضوء ثم يبتدئ في الدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك اوقات الصلاة)).اما ابن جبير فقد تحدث عن المستنصرية فقال ((والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية يعني الرصافة وما منها مدرسه الا وهي يقصر البديع عنها واعظمها واشهرها النظامية التي ابتناها نظام الملك وجدت سنه ٥٠٤هـ/١١١٠م ولهذه المدارس اوقاف عظيمه وعقارات محبسه تتصور الى الفقهاء والمدرسين بها ويجرون فيها على الطلبة ما يقوم بهم)) .وقد انشا الخليفة المستنصر بالله خزانة كتب قريبا من مجلسه جمع في كتب جمع انواع العلوم على اختلافها وانتخب فيها خطوط المشايخ والعلماء والكتاب ثم سمت همته العالية الى انشاء المدرسة المستنصرية التي اوعز بعمارتها على شاطئ دجله ووقفها على المذاهب الأربعة وملائها بالفقهاء فصارت كعبه العلم ومحط اراب الرغبة اليه والاشتغال به وجعل بها خزانه كتب انتخبها واستجادها ووقفها على طلبه العلم وبنى بجانبها دارا للقران الكريم وعين عليها الشيخ ومعيد وانشا بجوار المستنصرية دارا للطب ويشرف عليه شيخ له معرفه عالية بالطب وامر بان يداوي الناس فيها

مجانا فضلا عن الطعام والمنام واذ اوقف على تلك المدرسة اوقافا تسد رواتب موظفيها ومصاريفها الاخرى كما امر الخليفة العباسي بان يلحق بالمدرسة طبيب حازق مسلم وعشره من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ينفق عليهم من اوقاف المدرسة على ان يقوم الطبيب بفحص من يقع له مرض ويجهز المريض بما يوصف له من الأدويةوالأشربة وغيرها وقد خصص الخليفة العباسي المستنصر بالله للمدرسين فيها لكل واحد منهم في اليوم عشرين رطل خبز وخمسه ارطان لحم مع خضرها وللمعيد في كل يوم سبعه ارطال خبز وعرقان من الطبيخ وكان في دار القران شيخ يلقن القران ومعيد وثلاثون صبيا ويكون للشيخ في كل يوم خمسه ارطال خبز وعرقان طبيخ وللمعيد في كل يوم اربعه ارطال خبز وعروق طبيخ ولكل صبي ثلاثةارطال خبز وعروق طبيخ واثناء الغزو المغولي للعراق ضلتالمدرسةالمستنصرية تمارس دورها العلمي رغم ما اصابها من اذى على يد المغول وضياع الكثير من كتبها وفقدان الكثير من المكتبات الخاصة التي كان يستعين بها طلاب العلم اثناء دراستهم في النظامية اختلف قسم منهاوتعرض القسم الاخر منها للنقل الى مناطق اخرى خوفا من ضياع هذه الكتب كما باع قسم من الناس كتبهم في مختلف مناطق العراق والشام التي لم تتعرض للتدمير الشامل كالذي حدث في مدينه بغداد وفقدنا مؤلفات ابن الساعي وابن النجار وابن الفوطي لكن على اية حال فقط عادت المدرسةالمستنصرية الى اخذ دورها العلمي وارجح ان تكون هذه الفترة هي فتره حكم علاء الدين عطاء ملك الجويني ثم استمرت تمارس دورها حتى سنه١٠٣٠هـ/١٦٢٠م، وظلت مؤثره في الفكر العربي الاسلامي وتدرس فيها العلوم النقلية والعقلية لا نعلم هل ان المستنصرية ظلت على حالها تمارس مهامها الدينيةوالعلمية في العهد الايلخاني ام لا ولو تتبعنا ما كتبه ياقوت الحموي من ماده علميه في بلاد خرسان نجد مصداق هذا القول فما كتبه هو من هذه المكتبات وهذا يحتاج الى اكثر من رسالة ماجستير ودكتوراه لبحث هذا الموضوع بأذن الله تعالى عسى الله ان ييسر لطلاب العلم تنازل هذه المواضيع مستقبلا ان شاء الله.وتعرضت مكتبة المدرسة المستنصرية الى الحريق اكثر من مره بسبب قربها من الاسواق والمحال التي كانت مبنيه بالطين ومسقفة بالسعف والطين فعلى سبيل المثال عندما حدث حريق في سنه٥١٠هـ/١١١٦م، في الحضائر المجاورةللمدرسةالنظامية اتصلت النار بالمدرسة واحترقت الدور واحترقت مكتبةالمدرسةالنظامية وسلمت الكتب ان الفقهاء والناس لما احسوا بقرب النار منها نقلوها الى مناطق اكثر امانا.كما بنيت في مدةخلافة مستنصر باللهمدرسة دار الحديث الأشرفيةفي دمشق، وقد بناها الملك الاشرف صاحب دمشق وذلك في سنه 628 هـ ١٢٣٠م، واكتمل بناؤها سنه 630هـ 1232م اما الموصل فقد اشتهرت بمدارسها البديعةوالجميلة((وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست او ازيد على دجله فتلوح كأنها القصور المشرفة وقد خصص لهذا المدارس الاوقاف التي تسد حاجتها لتنفق على استاذتها وطلابها. اما عن رواتب العلماء والشيوخ

في المدارس فكانت قليله مقارنه بما كان يأخذ بقيه موظفي الدولةالعباسية فقد بلغت رواتب العلماء في المستنصرية 12 دينار لكل واحد منهم في الشهر كما مر بنا قبل ذلك بينما بلغ راتب احد قاده الجيش العباسي وهو ابو شجاع ايلدكز بن عبد الله التركي الناصري الملقب بـ بطاز 12,000 دينار في السنه اما رواتب المعيدين وعددهم سته فيأخذون٣ دنانير في الشهر لكل واحد منهم اما الطلاب فكان راتب الواحد منهم ٢ دينار في الشهر. اما شيوخ دار القران فقد كان راتب الشيخ ٣ دنانير والمعيد له في الشهر دينار وعشرون قيراطا وكان راتب الشيخ في دار الحديث يبلغ 2 دينار وعشره قراريط اما المعيد فله في شهر 13 قيراطا وحبه. اما رواتب الاداريين في المدرسةالمستنصرية فكانت بقدر ما يتقاضاه المدرسون في فروع الفقه فراتب الوالي 12 دينار في الشهر وراتب المشرف سبع دنانير في الشهر اما راتب الكاتب فهو نفس راتب المشرف اما البوابون والحمامين والموزين والقيم والطباخ وغلامه وخزان الآلات،وخزانة الديون وغلمان الديون والمزملاتي والمؤذن والنفاط فلهم رواتب وجرايات وتتضاعف هذه الرواتب في شهر رمضان المبارك حيث يمكن ان نسميها هديه العيد. اما عن مشاكل الفلاحين وعامة الناس فقد كانت لهم مشاكلهم الخاصة مع الخلافة العباسية وخاصة ما يتعلق بجمع الضريبة ففي سنة 467هـ / 1074م ونتيجة لما كان يعانيه الفلاحين من ظلم اخذ الخراج قبل نضوج الحاصل ، فامر نظام الملك والسلطان ملكشاه بجمع جماعة من المنجمين،وجعلوا النيروز اول نقطة من الحمل أي تأخير جمع الضريبة حتى تنضج المحاصيل، وعملا بما كان جاريا من قبل في عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله . كما كان يصدر السلاجقة في بعض السنين اوامرهم بإيقاف جباية بعضالضرائبمثلما حدث في سنة 479هـ/1086م، اذ اسقط السلطان المكوس (وهي الضرائب غير الشرعية) والاجتيازات بالعراق (ضرائب التجارة الداخلية) . وما حدث كذلك سنة 501هـ / 1107م حيث اسقط السلطان السلجوقي محمد الضرائب والمكوس ودار البيع والاجتيازات وغير ذلك مما يناسبه بالعراق وكتب به الألواح (الأوامر ليقرأها الناس في الطرق والمحلات و مداخل المدن ليعرفوا حقيقة الامر ولا يدفعوا لجامعي الضرائب غير ما هو مقرر عليهم) وجعلت في الأسواق ومنع ظلم الناس . كما أمر الخليفة المسترشد بالله في سنة 512هـ / 1118م بتخفيف الضرائب عن الناس، فأمر بأسقاط كل جور عن الاقطاع المختص، وامر ان لا يؤخذ إلاما جرت به العادة القديمة (أي رفع الزيادات التي فرضت من غير وجه حق) كما اطلق ضمان غزل الذهب، وكان صناع السقلاطون والممزج وغيرهم ممن يعمل منه، يلقون شدة من العمال عليها، واذى عظيما . كانت الخيوط المذهبة (ذهب طبيعي وخيوط ذهبية) التي تمزج بأنواع القماش، فتباع الأقمشة بأسعار عالية، لما في عملها من جهد إضافي. وفي سنة 604هـ / 1207م امر الخليفة الناصر لدين الله بأطلاق جميع حق البيع وما يؤخذ من ارباب الامتعة من المكوس من سائر المبيعات، وكان مبلغاً كبيراً .وعندما تولى الخلافة الظاهر بأمر الله في سنة

622هـ/ 1225م امر هذا الخليفة بتخفيف الضرائب عن الناس في العراق وعمل على تحسين احوالهم المعاشية، فأمر بالتعامل بمكيال واحد يستلم الناس به ويسلمون الدولة به، ولا يجوز التعامل بمكيالين في اخذ الضريبة، إذ كانت الدولة تستلم حصتها سابقا بشكل كامل، وتسلم الناس ما يحتاجون إليه بمكيال ناقص عن الأول، وبلغ الفرق بين الواردين خمسة وثلاثين ألف دينار .وجرى الاهتمام بالفلك في المدة السلجوقية فقد أمر السلطان السلجوقي ملكشاه بعمل مرصد في بغداد، وقد عين له جماعة من خيار العلماء، وخصص له النفقات السنية، وبقي الرصد مستمرا حتى وفاة السلطان، فبطل بعد موته سنة 485هـ/1092م . وفي سنة 524هـ / 1129م، تولى الرصد بالدار السلطانية الواقعة شرقي بغداد البديع الاصطلابي ولم يتم له ذلك.وتم انشاء عدد من الاربطة في مختلف ارجاء الدولة العباسية .

ويبدو ان هذه الاربطة كانت تتخذ اماكن للعلم والعبادة والزهد، فقد انشأ شيخ الشيوخ ابو سعد الصوفي (479هـ/1086م) رباط نهر المعلى (ويعرف في عهد ابن الاثير برباط شيخ الشيوخ) وبنى اوقافه التي أوقفها الناس عليه، كما بنى هذا الرجل وقوف المدرسة النظامية.في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله وفد على بغداد جماعة مـــن البلغار يريدون الحج، فأقيم لهم من الديوان الاقامات الوافرة، فسئل بعضهم :من أي الامم هم البلغار؟ فقال: هم قوم تولدوا بين الترك والصقالبة، وبلدهم في اقصى الترك، وكانوا كفارا، فاسلموا عن قريب.وقد أمر الخليفة الناصر لدين الله بإقامة دور الضيافة لفطور الفقراء أيام رمضان في محال بغداد المختلفة في جانبي بغداد، وجعل في كل دار من يوثق بأمانته في سنة 604هـ / 1207م وخصص لكل صائم في كل يوم رطلين من الخبز الجيد، قدح طبيخ فيه نصف رطل لحم ضأن . فكان يفطر كلّ ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة .حيث انشأت دور المضيف في جميع محال بغداد القريبة لغرض تناول الفطور فيها في شهر رمضان فتمت في سنة سبت وعشرين ستمائة، وانشأ مسجد عشائر المطل على كرسي الجسر العتيق وجدده حسن تجديد في سنة ست وثلاثين وستمائة. وتقدم ببناء مزملة مقبرة لأمام احمد بن حنبل في سنة اربع وثلاثين وستمائة، وبالجملة انه لم يترك منقبة الا وسلك طريقها ، ولا حسنة الا وحاز توفيقها.وتم الاهتمام بطرق المواصلات وحفظها، اذ كانت هذه من مسؤوليات الولاة وعمال البريد ، وبخاصة اذا كان الخليفة أو السلطان يتمتع بالقوة، وهي اشبه بالربايا التي تنتشر على الطرق الداخلية لحفظ المسافرين والحجاج والتجار ، وكانوا يلقون القبض على كل من يشكون فيه. ومن المهام التي تلقى على الامراء هي مسؤولية حماية الطرق الخارجية مثلما حدث للأمير فخر الدين ابو منصور، والذي فوض اليه طريق خراسان والجبل الى شهرزور وقد وصف ابن جبير حماية الطرق في العصر العباسي فقال عنها: ((والطرق على أكثرها خيام، فيها رجال محترسون

للطريق، اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج، دون اعتراض منهم لإستنفاع بدية أو غيرها)) ، كما كانت الخلافة تقوم بتنظيف الآبار في طريق الحج واعدادها للحجاج، فضلا عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة من بغداد وصدقة فقراء الحرمين الشريفين وكسوة حجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان الخلفاء العباسيون يكسون الكعبة من دار الطراز في بغداد منذ ايام الخليفة عبد الله المأمون (198- 218هـ/813-833م) فكساها الخليفة الناصر لدين الله ديباجا اخضر، ثم كساها ديباجا اسود. كما أمر الخليفة المسترشد بالله سنة 517هـ / 1123م ببناء سور مدينة بغداد، وان يجبى ما يخرج عليه من البلد، فشق ذلك على الناس، وجمع من ذلك مال كثير ، فلما علم الخليفة كراهة الناس لذلك، أمر بإعادة ما اخذ منهم، فسروا بذلك وكثر الدعاء له. وقد تناوب اهل بغداد علىالمشاركة في بناء السور، يعمل كل أهل محلة منفردين بالطبول والزمور، وزينوا البلد وعملوا فيه القباب (السرادقات).

وعندما توفي مجاهد الدين قايماز (الذي بنى مقام الخضر عليه السلام في الموصل، ويقع مجاور جسر الحرية الحالي الذي يسميه اهل الموصل بالجسر الجديد) ذكره ابن الأثير قائلا: كان عاقلا دينا خيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويحفظ من التاريخ والاشعار والحكايات، وبنى عدة جوامع بالموصل، وبنى الربط والمدارس والخانات في الطريق، وله من المعروف الشيء الكثير.كما بنى أحد المساجد في الجانب الغربي من مدينة بغداد في موضع يعرف بقمرية وتمت عمارته سنة ست وعشرين وستمائة، ورتب له ما يحتاج اليه من الشيوخ والمؤذنين وطلبة العلم. كما امر الخليفة المستنصر بالله ببناء رباط دار الروم، وجعل له مئذنة ورتب له ما يحتاج اليه من نفقات ومصاريف لإدامته.وأمر الخليفة ببناء دار المضيف في جميع محال بغداد القريبة لغرض تناول الفطور فيها في شهر رمضان فتمت عمارتها في سنة ست وعشرين وستمائة، وانشأ مسجد عشائر المطل على كرسي الجسر العتيق وجدده احسن تجديد في سنة ست وثلاثين وستمائة. وتقدم ببناء مزملة مقبرة الإمام احمد بن حنبل في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وبالجملة فانه لم يترك منقبة الا وسلك طريقها، ولا حسنة إلا وحاز توفيقها. اما القاهرة فقد عرف فيها مستشفى للمجانين، ويقدم في هذا المارستان كل شيء، وله من يتفقده كل يوم. كما نشاهد في هذه الفترة كثرة بناء الاربطة والمشاهد على اضرحة الصالحين والخلفاء والأولياء وشيوخ الصوفية والزهاد، وكانت هذه الربط تلحق بها غرف للنوم والعبادة والذكر، وتلحق بها المكتبات ويؤمها الزهاد والصوفية وينقطعون اليها للعبادة، وقد قام قسم من الخلفاء وزوجاتهم ببناء هذه الأضرحة، فقد بنت ام الخليفة الناصر لدين الله، رباط علي الهيني ورباط بجواره، وأنشأت قبة عجيبة عليه، وأوقفت

عليه قرية بلغ واردها آنذاك خمسمائة دينار في ذلك الوقت. وعندما توفيت زوجة الخليفة الناصر لدين الله سلجوقة خاتون بنت قلج ارسلان، سنة 584هـ / 1188م حزن عليها حزنا شديدا وبنى تربة لها بالجانب الغربي من بغداد، وبنى إلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة .كما اهتمت الدولة العباسية ببناء الربط للصوتية، وجعلت عليها الوقوف والمشرفين لصرف وارداتها على هذه الربط، ومن يأوي اليها فقد بنى الخليفة الناصر لدين الله رباطا بالحريم الطاهري غربي بغداد على نهر دجلة حيث اكتمل بناؤه في سنة 589هـ/1193. وكان مر احسن الربط، ونقل اليه كتبا كثيرة من احسن الكتب، وبني رباط الشيخ محمد السكران ويسمى زاوية الشيخ محمد السكران، وكانت توزع في هذه المشاهد والأضرحة والأربطة الصدقات الرمضانية والرجبية. كانت الأطعمة تقدم في رمضان ورجب عند بعض هذه الأضرحة والمراقد مثل قبر الإمام احمد بن حنبل، وعند قبر أبي حنيفة النعمان، حيث يقدم الطعام للفقراء والمرابطين .

وبنى الخليفة المستعصم بالله الرباط المستجد بالجانب الغربي من بغداد، وبنى المدرسة البشيرية، مقابل مشهد الشيخ معروف الكرخي وجعلها برسم فقهاء الائمة الأربعة .وأثناء الحكم المغولي ومن خلال المسؤولين المسلمين الذين تولوا منصب صاحب ديوان العراق، نجد أن هؤلاء يقومون ببناء بعض المنشآت العمرانية والدينية في مختلف ارجاء العراق عندما عين الخان المغولي صدر الدين الطوسي مسؤولا عن الاوقاف في جميع الامبراطورية الايلخانية ،فقام هذا الشخص بتعيين نواب عنه في اقاليم الدولة المغولية ، ففي سنة 666هـ / 1267م أنشأ علاء الدين الجويني رباطا قرب مشهد الإمام علي بن ابي طالب رضيالله عنه، وأوقف عليه أوقافا كثيرة. وفي نفس السنة امر بقتل احد الأشخاص الذي أساء إلى الدين الإسلامي وفضل شعره القذر على القرآن الكريم. وقام علاء الدين برجم رجل وامرأة وجدا في حمام على فاحشة في رمضان خارج سور بغداد كما انشأ ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبي رباطا قرب مشهد الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه في سنة 680هـ/1281م، واوقف عليه اوقافا كبيرة واسكن به جماعة من المرابطين ، وعندما زار السلطان المغولي محمود غازان العراق ، زار مشهد الامام الحسين عليه السلام وزار كذلك مرقد الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه، وفرق بين الناس أموالاً كثيرة ، كما عادت قوافل الحجاج العراقيين الى التوجهإلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج . .بعد انقطاع دام سنوات اثر الغزو المغولي .كما امر السلطان محمود غازان ببناء مرصد فلكي في مدينة مراغة،وشجع المؤرخ رشيد الدين الطوسي على كتابة كتابه في التاريخ (جامع التواريخ) والذي أرخ فيه للمغول بشكل مفصل .

وفي عهد السلطان المغولي محمود غازان ، تم حفر نهر في منطقة الحلة سمي بالنهر الغازاني ، وأوصله الى مشهد الإمام الحسين ، حتى أخذ يسقي أراضي مدينة كربلاء اليابسة فأصبحت الأراضي الممتدة على جانبيه مليئة بالحدائق والبساتين ، وأصبحت السفن القادمة من بغداد وغيرها من نهري دجلة والفرات،تستطيع الوصول الى المدينة ، وارتفع انتاج غلات المنطقة الى ما يقارب المائة ألف طغار، وأصبحت صادراتها من الحبوب والخضراوات تصل الى بغداد وأعمالها ، كما أوصل غازان فرعاً من النهر المذكور الى مشهد سيدي أبي الوفاء في نهر سمي بالنهر الغازاني الأسفل ، وأوقف الكثير من الأوقاف على خدمة المشهد المذكور، ونتيجة لهذا العمل فقد ارتفعت أسعار الأراضي والدور أضعافاً مضاعفة في المنطقة التي شملها مشروع الري هذا كما فتح صاحب ديوان العراق علاء الدين عطاء ملك الجويني نهر من الفرات الى مدينة النجف انفق عليه أكثر من مائة الف دينار، وقد زرعت الأراضي الواقعة على هذا النهر بالأشجاروالمزارع .